صورة اليهودى فى شعر سميح القاسم

د. سعيد محمد الفيومى
جامعة القدس المفتوحة ـ غزة

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى التعرف على صورة اليهودى فى شعر سميح القاسم ورؤية الفلسطينى لهذه الشخصية ، فالشخصية اليهودية شخصية معقدة الجوانب يصعب التعرف عليها ، لأنه يدخل فى تركيبها عناصر شتى وعوامل متعددة تقف وراء هذا التعقيد ، وقد حاول الشاعر سميح القاسم أن يرسم هذه الشخصية من خلال ممارسات العدو الصهيونى وأن يصف هذه الشخصية من خلال علاقة التناقص القائمة بين اليهودى والفلسطينى ، بعيداً عن أى خلاف عقائدى .

Abstract

This Paper aim's to explore the depiction of the Jew in Sameh Al Qassem's poetry from Palestinian perspective.

The Jew has been represented as a complex, multiplsided character.

This complexity is due to the variety of the factors that have formed such a character.

Sameh Al Qassem tries to represent the Jew through his portrayal of the practices of the Zionist enemy and through the opposition between the Palestinian and the Jew irrespective of their guiding doctrines.

التقديم

من الملاحظ على الدراسات العربية والمهتمة بالقضية الفلسطينية، الاهتمام بالجوانب المتعلقة بالصراع السياسي وندرة الأبحاث المتعلقة بالجانب الثقافي والإنساني، متناسين بذلك أن الصراع العربي الإسرائيلي في حقيقته هو تعبير عن تناقض ثقافي حضاري، ولعل المآسي التي يرتكبها العدو الصهيوني في كل يوم، تعبر عن مدى عمق التناقض الثقافي والحضاري بيننا وبينهم.

إن دراسة الشخصية اليهودية هي من أهم الدراسات التي يجب أن تأخذ جانباً من البحث النظري لنستطيع أن نقف على حدود هذه الشخصية، وكيفية التعامل معها. وهذا البحث يتناول هذه الشخصية في شعر سميح القاسم، لنبين حدود العلاقة بين الفلسطيني من جهة، واليهودي من جهة أخرى، ومن هنا نتساءل ما نوع هذه العلاقة ؟.

لقد حاولت الصهيونية العالمية –منذ قيامها– رسم صورة خاصة باليهودي على أنه شخصية منفصلة، تتصف بالتعالي على الجنس البشري، متجنبة بذلك الحقائق، ونافية الأسس العقلانية كلها، وقد اعتمدوا في ذلك كله على مقولة (شعب الله المختار)، ومع أن هذا البحث يركز على الشعر بالمقام الأول، إلا أن له ارتباطاً وثيقاً بالواقع. وهذه الدراسة معنية بصورة اليهودي في الشعر الفلسطيني وقد اخترنا منه شاعراً هو (سميح القاسم)، لنتعرف على رؤيته لهذه الشخصية.

كما أن الدراسة تعرض لمفهوم الشخصية بصورة عامة، وحقيقة الشخصية اليهودية، وتحلل النصوص الشعرية لنتبين من خلالها صورة اليهودي كما عبر عنها الشاعر.

تعريف الشخصية

جاء في معاجم اللغة العربية في تعريف الشخصية (والشخص سواء الإنسان، تراه من بعد، ثم استعمل في ذاته قال الخطابي ولا يسمى شخصاً إلا جسم مؤلف له

شخوص وارتفاع). والشخصية هي كلمة مشتقة من الفعل (شخص) والتي تعني الخروج من موضع إلى غيره[١] ولقد تعرض علماء النفس والاجتماع لدراسة الشخصية، واختلفت نظرياتهم في تحديد الملامح العامة للشخصية، ومرد هذا الاختلاف إلى أن الإنسان ليس شيئاً ذات صفات ثابتة، يسهل فيها التعرف عليه والإحاطة بأبعاده كلها، "إذ لا يوجد شخصان من الجنس نفسه، والعمر نفسه، والمركز الاجتماعي نفسه، والقسم الحضاري نفسه، لمجتمع واحد، يملكان تجارب متطابقة"[٢]، والإنسان في مجمل تكوينه هو مجموعة من الصفات المادية والنفسية الخاصة به مما يجعله متفرداً ومميزاً عن غيره.

هكذا نلاحظ أننا نعي بالشخصية مجموعة من الصفات الجسمية، والنفسية، والاجتماعية، والمزاجية التي تميز المرء عن غيره، إذ تؤلف كلاً متحداً متكاملاً من العوامل والاستعدادات، والوظائف النفسية التي تصبح علماً لهذا الإنسان فيتذكره الناس بهذه الصفات.[٣] وهذا يعني أن هذه الصفات التي تتكون منا الشخصية لا تعمل منفصلة بعضها عن بعض بل تتحد وتتكامل لتكون شخصية مميزة عن غيرها. وهكذا يمكننا القول بأن الشخصية هي: الصورة المنظمة المتكاملة لمكونات الفرد جميعها، ووظائفه الجسمية، والنفسية، والاجتماعية التي ينظر إليها وينظر هو إلى نفسه من خلالها فتجعله يشعر بكيانه المتميز عن غيره[٤]

---

[١] انظر: أحمد بن المقرئ الفيومي/ المصباح المنير/ بيروت/ ١٩٨٧م/ كتاب الشين/ ص١١٦

[٢] كلايد كلوكهون/ الإنسان في المرآة/ ترجمة شاكر سليم/ المكتبة الأهلية/ بغداد/ ١٩٦٤م ص٣٧٣

[٣] انظر: د. فايز محمد الحاج/ بحوث في علم النفس العام/ المكتب الإسلامي/ الرياض/ ط ه/١٤٠٦هـ ١٩٨٦م/ ص١٦٢

[٤] المصدر نفسه/ ص١٦٣

ونحن هنا، بصدد دراسة الشخصية اليهودية في الشعر الفلسطيني، ندرس الصفات النفسية اليهودية والتصرفات والسلوكيات الناتجة عن هذه الصفات، ولا يهمنا بأي حال من الأحوال الصفات المادية لهذه الشخصية: من طول، أو عرض، أو لون بشرة، أو لون عينين، أو حتى اللغة، لأن مثل هذه الصفات تشترك فيها السلالات كلها على تنوع فروعها، فذلك كله يتعرض للتغير والتبديل بحيث يصعب الاعتماد عليه لتحديد الشخصية.

الشخصية اليهودية:

إن الشخصية اليهودية معقدة الجوانب، بحيث يصعب التعرف عليها، ذلك لأنه يدخل في تركيبها عناصر شتى، تجمعت في خلال عقود طويلة من الزمن. فقد عاش اليهودي ظروفاً شاذة بين الأمم مما أكسبه صفات سيئة تنطوي على معنى عنصري عقائدي، فقد اتخذ اسم (يهودي) معنىً بغيضاً بين الأمم، فالطائفة اليهودية متمردة منطوية على نفسها شديدة التعصب، متهمة بصلب المسيح، إضافة إلى اتصاف اليهود بالجشع وحب المال وكما أن لفظ (إسرائيل)، والتي يسمون بها دولتهم، هي لفظة تنطوي على صفة عنصرية، فالتوراة تروي قصة هجرة سيدنا (يعقوب) إلى أرض الكنعانيين (فلسطين) – قادماً إليها بأهله غريباً شريداً، هارباً من أصهاره بالعراق، يخوض جدولاً في منطقة الأردن اسمه (اليبوق)[١].

قال الراوي: فبقي يعقوب وحده يصارع رجلاً ما حتى مطلع الفجر، فلما رأى أنه لا يقدر عليه، ضرب حق فخذه فانخلع، فقال: لا أطلقك إلا إذا باركتني، فقال له: ما اسمك؟ قال: يعقوب. فقال: لن يدعى اسمك يعقوب بعد بل (إسرائيل) لأنك صارعت الله والناس وغلبت[٢]. فلفظة إسرائيل تعني قوة الله، وهي مكونة من لفظتينساميتين قديمتين هما: (أسر) بمعنى القوة أو الغلبة ولفظة (أل) أي الإله، وكما يبدو فإن التسمية تحمل في ثناياها شعوراً بالغلبة ونجد عديداً من هذه القصص الخرافية، والتي تغلغلت داخل الوعي اليهودي، والتي تؤدي دوراً وظيفياً في سلوكهم اليومي، إضافة إلى أنها من الأسس الرئيسة في تكوين ثقافتهم وتشكيل شخصيتهم، فمن هذه القصص قصة (شمشون الجبار) عندما يلتقي بأسد قوي وإذابه

---

[١] انظر: جيمس فريزر/ الفلكور في العهد القديم/ ترجمة د. نبيلة إبراهيم/ مراجعة د. حسن ظاظا الهيئة المصرية العامة للكتاب/ ج١/ ١٩٧٤م/ ص٣٦٤ وما بعدها

[٢] سفر التكوين (٢٣:٢٤) وما بعدها

يصرعه، وبدون سلاح،حتى إذا تمكن منه فسخه نصفين، وألقى به على الأرض[١]. ولو تعمقنا أكثر داخل التراث الفكري اليهودي فإننا نجد فنا من فنون الأدب يطلق عليه اسم (الإسكاثولوجيا)* ، ويعني هذا المصطلح وصف النهاية، أي حتمية نهاية هذا العالم، والمنتصر يكون أخيرا هو (إسرائيل). وقد جاء ذلك في نص موجود في إحدى المخطوطات العبرية المكتشفة في منطقة(أريحا)، وهي ما تعرف باسم (وثائق قمران)[٢]. وقد دخلت مثل هذه القصص الخرافية – التي تعد جزءا من المأثورات القديمة – العقل اليهودي لتصبح أحد المكونات الثقافية لديهم في العصر الحاضر. ومن الركائز الأساسية للشخصية اليهودية عقدة الانفصال والتمايز عن البشر، أو ما يعرف لديهم بعقدة (شعب الله المختار). فهذا الادعاء يقوم على أن اليهود الحاليين يكونون في مجموعهم كتلة بشرية منفصلة ذات عنصر واحد، وقد أثبتت الدراسات الخاصة بالأجناس البشرية كذب هذه الدعوة، إلا أن هذه الخرافة أخذت طريقها إلى النفسية اليهودية، بحيث أصبحت أقوى من التاريخ والحقيقة بعد أن صبغها اليهود بصبغة دينية. ويلخص الحاخام (كوهين) مضمون هذه المقولة في كتابه التلمود في قوله : ((يمكن تقسيم العالم إلى قسمين ، إسرائيل من جهة والأمم الأخرى مجتمعة من جهة أخرى، فإسرائيل هي شعب الله المختار وهذه عقيدة أساسية [٣]. ويؤكد ما سبق ما جاء في كتاب (مكان تحت الشمس) لرئيس الوزراء الإسرائيلي السابق(بنيامين نتنياهو) والذي يقول فيه:" عندما طلب فريدريك الأكبر من طبيبه أن

---

[١] د. حسن ظاظا/ الشخصية الإسرائيلية/ دار القلم/ بيروت/ ط٢/ ١٤١٠هـ –١٩٩٠م/ص٤٢

* تتكون هذه الكلمة من كلمتين يونانيتين هما (Eschatos) وتعني النهاية والثانية (logos) وتعني اللغة أو الوصف.

[٢] محمود العابدي /مخطوطات البحر الميت /عمان /١٩٦٧ م /ص٨١

[٣] لمزيد من التفاصيل انظر : روجيه جارودي / الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية / دار الشروق /ط٢/١٤١٩ ه – ١٩٩٨/ص٥٤ وما بعدها

يأتيه ببرهان على وجود الله، اكتفى بالقول: إن وجود اليهود هو الدليل على وجود الله [١]. فهو يرى أن اليهود معجزة تترجم وجود الإله.

وهناك عامل آخر له دوره في تكوين الشخصية اليهودية، وتركيبتها، وهو مرتبط ارتباطا مباشرا بالتربية الحديثة للأطفال، فمن الأصول اليهودية إلزام الوالدين بتعليم أولادهم مبادئ الديانة اليهودية، سواء في المدرسة الابتدائية، أو الإعدادية، أو الثانوية، فدراسة التلمود هي من البرامج الأساسية في المراحل الدراسية المختلفة كلها. هكذا تبدو الشخصية اليهودية، شخصية قائمة على التعصب العنصري والديني، وأساس هذا التمايز هو القصص الخرافية البعيدة عن المنطق التي لا أساس لها، لتصهر الإنسان اليهودي، وفق قالب محدد مسبقا. وقبل الولوج إلى التعرف على الشخصية اليهودية، في شعر سميح القاسم، نلقي نظرية بسيطة على رؤية اليهودي للعربي، حتى تبدو لنا هذه الشخصية – شخصية اليهودي – أكثر وضوحا، يتحدث (عاموز عوز) عن العرب في قصته (بلاد الضبع) يصفهم بجمع غفير منتن ينفل بالفشاش والقمل، وتنبعث منه روائح نتنة، يمرون على خرائب قراهم المهجورة، دون أن يتوقفوا عندها، ويدمرون كل ما يتعرضهم...)[٢]

أما (شموئيل عجنون) المكرم بجائزة نوبل للسلام، فقد وصف العرب يوما بالصفات التالية :

لا كرامة لهم، قذرون، يكرهون الحضارة، يشبهون الكلاب في جلستهم، [٣] وفي جانب آخر من جوانب المجتمع اليهودي، قام الدكتور (إبراهيم أبو لعذ) بإجراء مقابلات مع عشر مجموعات، تضم المجموعة الواحدة خمسين فتى يهوديا، عينة عشوائية وتشمل قطاعات المجتمع اليهودي جميعا، وكان موضوع النقاش هو :

---

[١](بنيامين نتنياهو) /مكان تحت الشمس /دار الجليل /عمان / ١٩٩٥ م / ص٤٨٣

[٢] انظر: أنطوان شلحت / شخصية العربي في الأدب العبري / دار ابن رشد / عمان /١٩٨٦م ص٢٤

[٣] المصدر نفسه /ص٦١

موقف اليهود ورؤيتهم تجاه (عرب إسرائيل) – جرت هذه المناقشة بعد حملة فنكلشتاين لطرد الفلسطينيين من الناصرة العليا – فقد قال المشاركون جميعهم إنهم يتماثلون مع موقف (فنكلشتاين العنصري تجاه الفلسطينيين). وقد أجمع هؤلاء الفتيان، بأن عرب إسرائيل، ينبغي تصفيتهم جسديا، بما في ذلك الشيوخ والنساء والأطفال،.....

ويتابع صاحب المقال .... وعندما أجريت مقارنات بين صبرا وشاتيلا، وبين حملة الإبادة النازية، أعربوا عن استحسانهم لما جرى في صبرا وشاتيلا، وصرحوا بأمانة بأنهم يرغبون في إبادة العرب بأنفسهم، دون إحساس بالذنب، أو وجع في الرأس، واستقبلت فكرة أن عرب إسرائيل يعتبرون هذا البلد وطنهم، بدهشة، واحتقار، ورفضت الحجج الأخلاقية كلها، التي طرحت بهزء وسخرية "![1] هكذا تبدو الشخصية اليهودية في رؤيتها للعربي بصورة عامة والفلسطيني بوجه خاص.

---

[1] د.إبراهيم أبو لغد/ الثقافة الفلسطينية وسياسة إسرائيل / مجلة الكرمل / العدد ١٢ /١٩٨٤/ص١٨٩

الشخصية اليهودية في شعر سميح القاسم

لقد تعرض الفلسطيني وعلى مدى خمسين عاما، إلى أبشع صور الطرد والقهر والقتل والتعذيب والاضطهاد، التي يمكن لشعب أن يتعرض لها في العصر الحاضر، فقد كان ذلك كفيلا بأن يخلق في نفس الفلسطيني نوعا من الكراهية والحقد المرير ضد اليهودي أينما وجد – في فلسطين أو غيرها –، ولو حدث ذلك لكان شيئا طبيعيا. إنه ردة الفعل لممارسات اليهودي، لكن الشاعر الفلسطيني كان ينظر إلى الأمور دائما نظرة عدل. فهو يدعو إلى استعادة حقوقه الضائعة. بدون انزلاق في مهاوي الحقد والكراهية والعنصرية، فهو بهذا لا يحمل في ذاته أي حقد أو عداء للديانة اليهودية أو للإنسان اليهودي؛ فالشعر الفلسطيني يخلو تماما من أي نزعة عنصرية أو ظاهرة تعصب ، والشعراء الفلسطينيون يكرهون الظلم ويحاربونه في المقام الأول، وعدوهم هو الاحتلال وسلب الأرض وطرد الشعب من وطنه. ولقد صور الشاعر (سميح قاسم) هذا الاحتلال بعدة صور، تبدو من خلالها صورة اليهودي كما رسمها هذا الشاعر، وكثيرة من قصائده تدور حول هذا المفهوم المحوري، يقول في إحدى قصائده[١]

- للحبر رائحة الدم

• قلبي وديع مثل نسمه
قربت أغلى ما لدي ،
– للحبر رائحة الدم
شفتي تظل شريفة
وجهي نقي مثل غيمه
إليك يا جدي الجميل

---

[١] سميح القاسم / الأعمال الكاملة / دار العودة /بيروت / ١٩٨٧ م / ص٦٣٧ – ٦٤٠

.غنمي تظل نظيفة

ويداي، باسمك تكدحان

من الشروق إلى الأصيل

يتحدث الشاعر في شعره هنا بمنطق إنساني مطلق، فهو لا يتعامل مع اليهود بصورة عنصرية أو تعصب ديني. لكنه يتحرك في إطار إنساني، وضمن حدود إنسانية ولا يتعداها إلى الحقد والكراهية للعنصر اليهودي،/ فقلبه وديع مثل نسمه/ وشفتاه تظل شريفة.

والحديث هنا عن الذات يهدف الشاعر منه الوصول إلى موقف إنساني، بحيث لا نلمح أي تعصب أو تقوقع، بل نلاحظ انفتاحا على المشاعر الإنسانية. والشاعر حين يكرر التعبير الشعري (للحبر رائحة الدم) فإنه يحاول أن يلغي فكرة رمزية دلالية غامضة، (ما) لا يريدها هو، ويبرر ذلك حين يقول:

- للحبر رائحة الدم
- نسقت من وعر حدائق

ونحت من صخر مطارق

وتلوت ما عندي من الصلوات

في الليل الطويل

وهو هنا من غير شك يصف سلوكه الحضاري تجاه هؤلاء الغرباء، فقد نسق من الوعر حدائق، كما أنه يتلو طوال الليل الصلوات دلالة على حبه للناس، كما أنه كرمه يبدو بدون سور، حتى لا يخيب أي طارق، ويؤكد على أن زاد هذا الكرم إنما هو لكل فم

– للحبر رائحة الدم

كرمي الفسيح بدون سور

أبواب بيتي

لا يخيب طارقا في الزمهرير

زادي لكل فم يسير

فالشاعر هنا يكرر الصورة الإيجابية للفلسطيني من خلال سلوكياته، ويستخدم هذه الصور لإثارة الأحاسيس الإنسانية أو للإشارة إلى نوع هذا السلوك تجاه هؤلاء الغرباء، كما أنه يستخدم عديدا من التفاصيل الحقيقية لخلق إحساس بواقعية الشخصية الفلسطينية، لذلك يصف وطنه بأنه مفتوح أمام الناس كلهم ومنهم اليهود، وكأنه بذلك يعترف لهم بحق الحياة لكن باعتبارهم أناسا عاديين، فهؤلاء اليهود – كما يقول القاسم – قد شاركوه في زاده، لكنهم لم يراعوا ذلك، إذ جاءوا من وراء الفولاذ والدم والضباب، يقول في هذا الصدد :

- قدموا من القرميد والفولاذ والدم والضباب

قدموا على تابوت تاريخي

وأجنحة الخراب

قدموا ولم تجد الرقي

يا جدي الأعمى، ولم يجد الكتاب

فارفد بنيك موعظة.

فالشاعر هنا ومع تصويره أعداءه (اليهود) بأنهم جاءوا من وراء الضباب، وهم يحملون تابوتا تاريخيا، إنما يستقي من ذاكرة التاريخ مادته الفكرية ليؤكد الافتراء اليهودي، وحقيقة وجودهم الكاذبة على أرض فلسطين، إذا يقيمون هذا الافتراء على ادعاءات ميتة حملوها معهم على(تابوت)، ثم يعقب الشاعر ذلك بطرح القضية الأساس، وهي مقاومة الاحتلال من خلال ثنائية ذات بعدين، أحدهما بعد سلبي، تمثله المقاومة بوجهها السلبي، المتمثل في الرقي والكتب – ولم تجد الرقي يا جدي الأعمى/ ولم يجد الكتاب –، وبعد إيجابي الذي تمثله نصيحة الجد الأعمى حيث يقول في آخر القصيدة حول ذلك:

للحبر رائحة الدم

لكن قلبي طيب

ويدي معودة على المحراث يا جدي

وسيفي في القراب

من ألف عام في القراب

فارفد بنيك بموعظة

للحبر... هلا تسمعون ؟

للحبر... رائحة .....الدم !

ولعل هذه الثنائية، هي ذاتها أن تكون عماد تجربة الشاعر داخل القصيدة، إذ يتعامل معها– كما نرى – مع الوجهين، نافياً الوجه السلبي، مكرسا الوجه الإيجابي، وكأنه بذلك يكرس التناقص الحتمي والطبيعي بين الشعب الفلسطيني والعربي من جهة والغزوة اليهودية من جهة أخرى، وهو تناقض مبني على الظلم والاحتلال بالدرجة الأولى. إن القاسم في هذه القصيدة كما في قصائد كثيرة غيرها، يرسم صورة أعدائه، محاولا أن يجعلهم يشاطرونه خبزه وطعامه وبيته، لكنه في الوقت ذاته يعالج قضية فكرية، هي نظرة الفلسطيني تجاه الآخر –اليهودي– لذلك نجده يعتمد في بناء القصيدة الفني على الحوار والاستطراد، ويبنى أساسهما على الإثبات والنفي، وقد استثمر الشاعر هذا الحوار ليكشف لنا عن رؤيته لهذا الآخر وصورته الحقيقية. ولعل علامات التنقيط والترقيم والاستفهام والتعجب التي جاءت في القصيدة بشكل مكثف قد لعبت دورها عند الشاعر في التأثير الوجداني النفسي على المتلقي، إذ تعكس لنا حالة النفور وفقدان الأمل لدى الشاعر في مسالمة هؤلاء القوم، فمثل هذه العلاقات تتعدى التركيب البنائي اللغوي للقصيدة، لتعكس لنا الحالة النفسية للشاعر، التي تمثل بإحساسه الضعيف بالأمل الذي يراوده. ويتكئ الشاعر على عنصر الحوار الفني نفسه في غير قصيدة له، مؤكداً على بعد التناقض المشار إليه مسبقاً، المتمثل في طبيعة الشخصية الفلسطينية المتجذرة في الأرض، وبين

الشخصية اليهودية الطارئة الغريبة،يقول في مقطع مـــن إحـدى قصـائده بـهذا الصدد:[١]

في وجهك لون البغض
في وجهي لون الأرض
فاسبك سيفك محراثاً
لم تترك لي من أرضي ميراثاً
يا مجرم!
لم أسرق .... لم أقتل .... لم أظلم!
يا عربي يا ...!
يا هذا .... يشفيك الرب
يا هذا جرب طعم الحب
يا هذا
أفسح للشمس الدرب!

إن الشاعر في هذا المقام لا يستخدم، في رسمه لشخصية اليهودي، ما يعبر عـن معتقداتها أو عاداتها، أو ما تحب هذه الشخصية أو ما تكره، لكنه يقدم الشـــخصية بشكل مباشر مستخدماً في ذلك أسلوباً قصصياً، يركز فيه على ارتياد مستويات مـــ قبل الكلام من الوعي، بهدف الكشف عن الكيان النفســي للشـخصية[٢] فالشـاعر يحاول أن يجد صورة أخرى لهذا (الآخر) تقف في صف مغاير فقـد تجـد منـهم أشخاصاً لم يتلقوا التربية التوراتية، في حين نشأوا في ظـل التربيـة الحديثـة، ونظروا بعد نضوجهم وحاكموا الأمور بموضوعية وتجرد، فكان هؤلاء أقرب إلـى

---

[١] الأعمال الكاملة / ص٥٥٨

[٢] انظر: روبرت همفري/ تيار الوعي في الرواية الحديثة/ ترجمة د. محمود الربيعي/ القاهرة/ ط٢

الانخراط في القوميات التي ينتمون إليها، وبقيت الديانة اليهودية بالنسبة لهم موروثا روحيا مما يعني أنهم ليسوا يهوداً بالمعيار اليهودي [١] كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين.

لقد دخل الديانة اليهودية كثيرا من التزوير، مما أفقد التعاليم اليهودية المقدسة عندهم القاعدة التراثية الفكرية، فقد أدى الارتباط بهذا الماضي المزور إلى غرس نوع مميز من السلوكيات والممارسات في نفوس اليهود، تلك التي كانت نتاج حالة القلق والإنفعال وعدم التوازن، فهم يعادون ويحقدون على الإنسانية بوجه عام، ولم يقف هذا الحقد عند الإنسان، بل تعد اه إلى الكائنات الحية كلها، بل والنبات والجماد ، وقد وردت صورة لهذا الجانب في قصيدة (أطفال رفح) لسميح القاسم حيث يقول مصورا حالة من اللاإنسانية التي يمارسها اليهودي حتى ضد ورد الحديقة:[٢]

للذي يحفر في جرح الملايين طريقة
للذي تسحق دبابته ورد الحديقة
للذي يكسر في الليل شبابيك المنازل
للذي يشعل بستانا ومستشفى ومتحف
ويغني للحريقة !
للذي ينحل في خطواته شعر الثواكل
وجداول تتقصف
للذي يصدم في الميدان دوري الفرح
للذي تقصف طياراته حلم الطفولة
للذي يكسر أقواس قزح

---

[١] حسن خضر / هوية الآخر – دراسات في الأدب الإسرائيلي / وزارة الثقافة الفلسطينية / عددا /١٩٩٥م /ص٨٠ وما بعدها.

[٢] سميح القاسم /ديوان الموت الكبير / دار الآداب /بيروت / ١٩٧٣ م /ص١١٥ -١١٦

فهذا العدو يصنع مذبحة للحديقة، والورد كما صنع مذبحة للإنسان ، هذه صفحة جديدة من الممارسات البشعة التي يمارسها اليهود ضد الحياة، ومن هنا فالشاعر يضيف بعدا آخر لصورة هذا العدو، حين يقدم معاناة الأرض معادلة لمعاناة الإنسان بحيث تصل هذه المعاناة إلى التداخل، بفعل تضخم الحقد في نفس الفلسطيني، الذي جعل من الطفل رجلا يقاتل، وهذا ما عبر عنه شعراء كثر، كما فعل القاسم في هذه القصيدة حيث يقول:

ويعلن الليلة أطفال(رفح)
بلغ بنا الحزن سن الرجولة
وعلينا أن نقاتل

ولا يخفى في قول الشاعر ذلك التناقض الحتمي بين الشعب الفلسطيني واليهودي، وهو تناقض قائم – كما ذكرنا من قبل – على الظلم والإحتلال في أساس الأمر.

وفي قصيدة أخرى يصور اليهودي (بالقرصان) يقول:[1]

أنا والسيول المستميتة
يا زوجتي إيزيس ....آلهة مريدة
لن ننتهي في مسلخ القرصان أشلاء شتيتة!
ما كان منا أمس يا إيزيس.... أحلام شهيدة
في الأرض نبعثها غدا...
دنيا منورة.... جديدة !!

يصور الشاعر أعداءه –(القرصان)، مستعيراً صوت إيزيس، ليقدم لنا صورة معاصرة، مفادها: رفضه أن ينتهي إلي أشلاء شتيتة، على يد هذا العدو (القرصان)، والشاعر يقدم لنا صورة العدو هذه متكئاً علي الأسطورة، ليفلت من شباك

---

[1] الأعمال الكاملة / ص٥٧٤

الحكاية، محاولاً إشباع الجو العام للقصيدة برموز فنية، مستمدة من التراث الأسطوري القديم.

لقد استطاع الشاعر أن يتناول المغزى الأسطوري (إيزيس)، لتتواءم مع معطي معاصر، حيث وظفها في تصوير هذا العدو، حين أضاف إلي (قرصان) لفظة (مسلخ)، وكأنهم ينتظرون هذا الإنسان الفلسطيني لتقطيعه، في حين يصور نفسه،و قد بعث من جديد / في الأرض نبعثها غداً / في الأرض نبعثها غداً .../ دنيا منورة ...جديدة /، فالشاعر يعمل علي توحيد الزمن التاريخي للهوية الفلسطينية، حين يقرأ هذا التاريخ، من خلال الأسطورة حين يشير إلي الهدف البعيد غداً /، لكنه يتوقف عند الدرب المنفي لهذا البعيد، حين يقول:/ أنا والسيول المستميتة/، إشارة منه إلي الثورة المشتعلة، فهو يدافع عن وعيه التاريخي من خلال تطوير آليات التعبير عن انتمائه الإنساني، وهو يريد بذلك، أن يميز بين ما هو إنساني في ثقافته،وما هو عنصري في ثقافة الآخر، لذلك فهو حين يصور أعداءه(اليهود) لا ينظر إليهم ضمن إطار العقيدة، أو الجنس أو اللون، ولكن من خلال سلوكياتهم، لهذا فهوا دائماً يغني للسلام[١]

يقول: باسم الحنين إلى الطفولة

باسم الحنين إلي الشباب

باسم الجنازة والزمان

اسكندرون يريد زوجته

ويحلم بالسلام.....

---

[١] الأعمال الكاملة/٧٤٨

ونرى الشاعر مرة أخرى يصور(اليهود) بسفراء الموت،يقول في إحدى قصائده:[١]

يا سفراء الموت في مدينة الرخام

لكم أقدم استقالتي من شركة التأمين للموت

وأنضم إلي كتائب النهار

فلتهطل الأمطار

ولترفع الأشجار رؤوسها.

يبدأ الشاعر هذه اللوحة بأسلوب نداء، يوحي بالتحدي و النقد في آن، فهو يشعر بأن (سفراء الموت)، جاءوا ليسلبوا ما تبقى له من ميراث قومي، وعندما يقدم استقالته من (شركة التامين للموت)، إنما يرفض التعامل مع هذا الواقع المعاشر، في ظل السيطرة اليهودية، محاولاً أن يبحث عن واقع آخر من صفه هو، يريد أن يبحث عن شخصيته وهويته، وهو لا يريد هوية تسكن الماضي، بل يريد هوية تستوعب الماضي، وتتفتح على المستقبل، بعيداً عن الخيالات والأساطير، لذلك يقول: وأنضم إلى كتائب النهار/ فلتهطل الأمطار/ فإسرائيل تعتبر نفسها دولة الشعب اليهودي المستقلة، وليست دولة الأشخاص المعتبرين مواطنين في إسرائيل، وكان واضحاً لدى القاسم أنه لم يكن متساوياً في يوم من الأيام مع مواطني هذه الدولة، ولا يستطيع حتى أن يقرر، أين يعيش، أو ماذا يفعل.

وفي جانب آخر يرسم القاسم صفحة جديدة يرصد فيها سمة أخرى من سمات الشخصية اليهودية، تلك التي تسعى للاستيلاء على خيرات الأرض كلها، في حين يحرم منها أبناؤها ، وهنا يشبه القاسم اليهودي بدودة(الدمن)، فالمواطن الفلسطيني صاحب الأراضي (يموت بجوعه، منفيا بلا كفن!) في حين تتخم هذه الدودة من خيرات هذا الوطن ... يقول في هذا الإطار[٢]

---

[١] سميح القاسم/ الموت الكبير/ دار الآداب بيروت/ ١٩٧٢م/ ص٤٠

[٢] سميح القاسم / الأعمال الكاملة / ٥٢٢ -٥٢٣

وماذا ؟

حين، في وطني

يموت بجوعه الدوري

منفيا بلا كفن !

وتتخم من طعام الله

تتخم دودة الدمن!!

....

وماذا ؟

والينابيع القديمة

ردها الأسمنت

وأنساها مجاريها

وماذا ؟

حين صار اللوز والزيتون أخشابا

تزين مداخل الحانات

وقد نجح القاسم في هذه المقاطع في إيضاح جانب مهم آخر من جوانب التناقض بين شخصيتي الفلسطيني واليهودي، التي نحن بصددها هنا، وهو بهذا يؤكد علاقة الفلسطيني بأرضه في آن، وغربة هذا العدو في آن آخر، فالعدو الصهيوني الغريب عن الأرض يحول ثمارها أخشابا تزين مداخل الحانات، وهو بذلك يكشف عن صورة جديدة لهذا العدو، وهي محاولته طمس الهوية الفلسطينية للأرض، من خلال تحويل مزروعات الأرض، التي تشتهر بها فلسطين من (اللوز والزيتون) إلى مصنوعات تجهل أهلها الأصليين. والشاعر هنا يضع الصراع في إطاره الحقيقي، فالحديث عن محاولة طمس الشخصية والهوية الفلسطينية تعني مناقشة الوجود الفلسطيني وجدلتيه مع نقيضه اليهودي الغاصب، ومما يؤكد ذلك التساؤل المكرر

داخل القصيدة (وماذا؟)، حيث يعبر هذا التساؤل عن لا منطقية هذا الواقع المعيشي لدى الإنسان الفلسطيني في أرضه مع هذا الغاصب. وفي جانب آخر عمد الشاعر إلى استخدام علامات التعجب والاستفهام داخل القصيدة بشكل واضح، جعل بناء القصيدة متناسقا يعادل فيه بين الهم الفني والهم النفسي والحياتي للإنسان الفلسطيني، مما يعمق الصورة القبيحة لهذا العدو، الذي يعيش الفلسطيني معه حالة اشتباك وصراع يومي.

وفي غير قصيدة له، يكشف القاسم عن صورة متلاحقة لشخصية اليهودي، يبرز في كل جانب أو بعض جوانب، تجلى تلك الصورة وتحدد ملامحها ، فهو في قصيدة له يصف اليهود بأنهم (خريف وبنادق) إذ يقول: [١]

لحظة لا تخرج الآن
فهم في الساحة الآن
خريف وبنادق
إنهم في الساحة الآن
عيون تتوهج
بالسكاكين الحرائق
وحياة، لها حقل بنفسج
إنهم في الساحة الآن ....تمهل يا حبيبي
ريثما يحجبهم عنا سياج الياسمين
ثم تمضي يا حبيبي
في أمان الله والوعد الأمين.

وهذه لوحة حقيقية واقعية، إذ إن اليهودي لا يمضي حياته اليومية إلا في ظل البندقية، حتى أصبح كل منهما وجها للآخر، بل جزءا متلاحما معه، والشاعر هنا

---

[١] سميح القاسم / ديوان الموت الكبير / ص٥٩ -٦١

يقدم في هذه اللوحة صورة أخرى لهذا الغاصب الذي ينتظر الفلسطيني العائد إلى وطنه وهو يتربص به لاغتياله، يصوره (بالخريف والبنادق)، فكأنه شجر بلا أوراق، وبنادق تمارس القتل.

إن فصل الخريف يعني جدلية الريح مع الشجر، يعكس الشاعر هذه الجدلية على الفلسطيني مع عدوه اليهودي، فكما أن الريح تعري الشجر من أوراقه الخضراء، فإن الفلسطيني كذلك يعري هذا العدو ليكشفه أمام العالم، ويضعه في صورته الحقيقية، إلا أن الشاعر يدرك أن هذا العدو استطاع أن يجير العقل المسيحي لصالحه، ومن هنا نجده يبرر قتاله ومقارعته لهذا العدو بالوسائل المتملقة وفي هذا يقول:[١]

ناديت من عشرين عام
يا مجلس الأمن الموقر – آه –
من عشرين عام
واليوم، عبر صواعق متربصات بالسلام
صوتي يجيئك بالبريد
من غابة الدم والحرائق والمرارة والخيام
صوتي يجيئك زهرة حمراء
في العام الجديد :
من يأت بيتي قاتلا
يرتد عن بيتي قتيل !

لم يقف تشويه هذا العدو للعلاقة بين الفلسطيني وأرضه عند هذا الحد، بل تعداه إلى محاولة تشويه تاريخها،ليقطع بذلك العلاقة التي تربط بين الإنسان الفلسطيني وأرضه فهو يريد الفلسطيني خارج الأرض والزمان. وقد عبر القاسم عن هذا

---

[١] المصدر السابق /ص٦٣٥

المعنى، كما شعراء آخرين فلسطينيين كثر، وقد ضمن قصائده المتعددة كثيرا من الصور الشعرية، التي تبلور دلالات هذا المعنى بشكل عميق، يكشف –حقيقة – عن جوانب أساسية في شخصية اليهودي،يقول في إحدى قصائده:[١]

أعطني من نار عينيك شرارة!
علني أحرق جيفة
سممت حقلي وآباري وريحي
وأحالت قريتي أرض خرافات مخيفة!
أعطني بعض شرارة....
علني أصبح للآتين من خلفي ... منارة!

فهو هنا يصور (اليهودي) بـ (الجيفة) التي تسمم الأرض والآبار والريح، وهي صورة جزئية يحاول الشاعر أن يبني منها صورة أخرى للعدو،حين يحاول أن يسلب من الفلسطيني قيمه المادية والروحية والتاريخية من خلال تسميم الآبار والحقول وحتى الريح، ليترك بعدها الإنسان الفلسطيني ضعيفا خاويا بلا كيان، فهو بذلك يعطينا نمطا جديدا لهذا العدو الذي يريد تحطيم العلاقة التاريخية بين الفلسطيني وأرضه / وأحالت قريتي خرافات مخيفة /. ولا يخفى ما وراء هذه الصورة البشعة لشخصية العدو وفكره من شراسة العدوان، وقهر الذات، ومحاولة إلغاء هوية الفلسطيني، المتجذر في الأرض ولا يخفى كذلك مدى ما للعلاقة التلاحمية بالأرض،من تأكيد على هوية الفلسطيني، وضحد للادعاءات التي يروجها اليهود في حقهم الكاذب في الأرض الفلسطينية. وقد تبلور المعنى ذاته والدلالة عينها في قصيدة أخرى للشاعر هي قصيدته(كرمئيل)* حيث يقول :[٢]

---

[١] المصدر نفسه /ص٢٧٣

* كرمئيل : اسم لمستوطنة يهودية أقيمت على أرض فلسطين في منطقة الجليل.

[٢] المصدر السابق / ص٩٠

صباح مساء
يطالعنا...وجهها والسماء
ونبسم ...لا بسمة الأغبياء
ولكنها بسمة الأنبياء
تحداهم صالب تافه
يغطي الشموس ... ببعض رداء!
غداً .... يا قصوراً رست في القبور
غداً يا ملاهي ... وغداً يا شقاء
سيذكر هذا التراب، سيذكر أنا منحناه لون الدماء
وتذكر هذي الصخور رعاةً بنوها بأدعية من حداء
وتذكر أنا ....

فالعدو كما يبدو هنا- قد أراد إقامة مستوطنة ومحو الشواهد التاريخية كلها لهذه الأرض، والشاعر- كما الشعب الفلسطيني- يرفض هذه الصورة الجديدة، وهو لا يفقد الثقة هنا لأن التاريخ يبدأ عنده من جديد ويؤكد ذلك في قوله في القصيدة نفسها:

هنا سفر تكوينهم ينتهي هنا ... سفر تكويننا في ابتداء!

وضمن إطار التنويع الفني هنا بين الشكل الحر والشكل التقليدي في القصيدة، يدور التعبير والدلالة في فلك الرؤية الشعرية للشاعر، فهو ينطق بلسان شعبه، يعبر عما يجيش في نفوس شعبه برمته، إذ يؤكد ضرورة ربط ماضي الإنسان الفلسطيني بحاضره، فتوافق تجربة الشاعر الفنية هنا تجربته الموضوعية بشكل دلالي مباشر وواضح.

وفي قصيدة بعنوان إلى أين منتهى تذهبين؟* : [١] يقول:

علمتني جنازير دبابة الفاتحين
علمتني اسمها
واسمها "منتهى"
"منتهى" صيحة الغاصبين
في روابي جنين
وأذان على قمة الموت
يستنهض المؤمنين.

يصور الشاعر (اليهود) بالفاتحين، كنوع من التهكم، فهو هنا يتحسس الواقع ويصوره بصورة مباشرة حين يرى هذا اليهودي بوضوح، من خلال دباباته، وهي تدوس شعبه. لقد استطاع الشاعر أن يقلب المعنى المعجمي للفظه (الفاتحين) ليصبح لها مدلول آخر هو القتل والظلم، من خلال مجاورتها، ألفاظ مثل (جنازير دبابة) (صيحة الغاصبين). (قمة الموت)،وفي قصيدة أخرى يقف الشاعر على جوانب أخرى للشخصية اليهودية، وإن بقيت ضمن إطار واحد ومحدود، فصفات الشخصية، على تعددها إنما ترسم إطاراً واحداً بوجوه متعددة، ويبقى وجه الظلم والقهر والاحتلال هو الأساس فيها، فطرق (التصفية الروحية) التي يلجأ إليها هذا العدو من أجل تدمير النفسية الفلسطينية، هي أساس سياسته وفعله اليومي، فالعداء بين اليهود والعرب ليس عداءً طارئاً أو عرضياً، إنما هو عداء مخطط مسبقاً، وقد جاء في مقالة للشاعر محمود درويش، نقلاً عن إحدى صحف العدو قوله: "إن دولة

---

* في هجوم شنته قوات الاحتلال على شعبنا في الضفة الغربية،استشهدت في جنين الطالبة البطلة منتهى عوض الحوراني، وأذاعت وكالات الأنباء أنها سقطت تحت جنازير دبابات المحتلين،عمر الطالبة سبع عشرة سنة

[١] سميح القاسم/ ديوان: وما صلبوه وما قتلوه ولكن شبه لهم/ منشورات صلاح الدين/ القدس/ تموز/ ١٩٧٦/ ص١٢٢

إسرائيل في معاملتها للعرب يجب ألا تشبه أية دولة في العالم، وفي هذا المجـــال، لأن ماهية (دولة إسرائيل) هي أنها دولة على الطريق .... ويجب أن نقرر معاملتنا للعرب طبقاً لأهدافنا"[١]. وهذه هي القاعدة التي تحدد سياسة اليهودي تجاه الآخـــر، وسلوكياته اليومية، وقد عبر سميح القاسم عن هذا الجانب تحديداً، مترجماً المقولـــة السابقة في قصيدة له يقول فيها:[٢]

ربما أفقد ___ ما شئت ___ معاشي
ربما أعرض للبيع ثيابي وفراشي
ربما أعمل حجاراً .... وتمثالاً ..... وكناس شوارع .....
ربما أبحث في روث المواشي _ عن حبوب
ربما أخمد .... عرياناً .... وجائع ....
يا عدو الشمس .... لكن .... لن أساوم
وإلى آخر نبض في عروقي .... سأقاوم.

لقد أراد الشاعر من وراء هذه التفصيلات المتوالية والاستطرار أن يؤكد حقيقتيـــن، الأولى منهما هي: شراسة هذا العدو، وعداوته للبشرية، والثانية هي تصميمه علـــى التحدي ومواجهة هذا العدو، مهما كان مصيره، ويجئ تأكيده، مترجماً موقفاً جماعياً ووطنياً، إذ يقول في خاتمة قصيدته:

ولعينيها وعينيه ... يميناً ... لن أساوم ....
وإلى آخر نبض في عروقي ....
سأقاوم .... سأقاوم .... سأقاوم ..!!

لقد حاول الشاعر، فيما مضى، أن يصور لنا الشخصية اليهوديـــة ويضعـــها فـــي إطارها الموضوعي ويعمل على كشف التشويه الذي أصاب هذه الشخصية، وحطـم

---

[١] محمود درويش/ شئ عن الوطن/ دار العودة/ بيروت/ ط١/ ١٩٧١م/ ص١٠٨

[٢] الأعمال الكاملة/ ص٤٤٧

فيها العناصر الإنسانية كلها، وحولت هذا الإنسان اليهودي إلى سفاح، وفي مقابل هذه الصورة يرسم الشاعر صورة الإنسان الفلسطيني، ويؤكد من خلالها على انتمائه الفلسطيني، في مقابل الشخصية اليهودية، التي بدأت تبرز على السطح في هذه الفترة، ومحاولة طمس الشخصية الفلسطينية، ولعلنا لا نعدم وجود هذا المعنى، بدلالته الفكرية والوطنية والإنسانية في قصائد سميح القاسم كلها، فهو بين حين وآخر، يؤكد على جدلية العلاقة بين الفلسطيني واليهودي، وفي ظل تصوير هذه الجدلية، يكشف عن خفايا الشخصية اليهودية وسماتها، في حين يبلور جوانب إيجابية مشرقة من تركيبة الشخصية الفلسطينية وفكرها وإنسانيتها وسماتها. يقول في إحدى قصائده: [1]

أمشي
منتصب القامة .... أمشي
مرفوع الهامة .... أمشي
في كفي ....قصفة زيتون وحمامة
وعلى كتفي .... نعشي
وأنا أمشي
قلبي قمر أحمر .....
قلبي بستان .....
فيه العوسج، فيه الريحان!
شفتاي .... سماء تمطر
ناراً حيناً حباً أحيان!
وأنا أمشي .... أمشي
منتصب القامة .... مرفوع الهامة ....

---

[1] الأعمال الكاملة/ ص١٧٤

في كفي قصفة زيتون وحمامة

وعلى كتفي .... نعشي!! ...

فالشاعر في هذه الأسطر، إضافة إلى أنه يرسم صورة الفلسطيني، إنما يحاول أن يعبر عن قناعاته الذاتية دون مبالغة، حين يلعن أنه يحمل في يده /قصفة زيتون/، وبالمقابل يحمل على كتفه نعشه، ويشعرنا بنوع من التوازن النفسي الذي يعيشه الشاعر وهو لا يقص تجربة ذاتية -وإن بدت كذلك- بل هي تجربة جماعية تمتزج فيها الأحاسيس الفردية بإحساس الجماعة، فتتحد الرؤية الفردية برؤية الجماعة. ويبدو حضور ضمير المتكلم في هذه الأسطر واضحاً، فالشاعر قد أراد من وراء ذلك التركيز على قضيته المتمثلة في الحضور الفلسطيني بأرضه، مؤكداً بذلك ذاته "فتحقيق الذات هو عملية شخصية في جوهرها -فهي هنا تعني الشخصية الفلسطينية- والتي تتم عن طريق (الفعل) -/ شفتاي ... سماء تمطر/ ناراً حيناً حباً أحيان/ - الذي يحيل (الإمكانية) إلى (واقعة) وأن الذات أو (الأنا) لا يكتسب لها وجود حقيقي إلا عن طريق ما تفعل، بعيداً عن أي ميراث سابق، قد لا يمثل أية أهمية لذات تسعى إلى تحقيقها عبر الزمان، ولا تكاد تتوقف في أية لحظة من لحظات العمر"[١]. فالشاعر هنا أراد من وراء ذلك أن يقدم لنا الشخصية الفلسطينية، وطبيعة تناقضها مع العدو اليهودي وموقفها الثابت من حالة التناقض هذه. وفي قصيدة الانتفاضة يجمع الشاعر بين صورتين، صورة الفلسطيني، وصورة اليهودي بصورة جديدة، يقول في هذه القصيدة:[٢]

تقدموا تقدموا!

كل سماء فوقكم جهنم

---

[١] انظر: د. زكريا إبراهيم/ قضايا فلسطينية/ مشكلة الحياة/ مكتبة مصر/ ط٢/ ١٩٧٥م

[٢] سميح القاسم/ ديوان/ أستأذن أحداً / دار رياض الريس للكتب والنشر/ لندن/ ١٩٨٨م/ ص١٤٠

وكل أرض تحتكم جهنم

تقدموا

يموت منا الطفل والشيخ

ولا يستسلم

وتسقط الأم على أبنائها القتلى

ولا تستسلم

يعنون الشاعر هذه القصيدة (بالانتفاضة) ثم يعطيها عنواناً آخر، أشبه بالحاشية الصغيرة هو: (رسالة إلى غزاة لا يقرأون) بما يمكن اعتباره عنواناً فرعياً، بجانب العنوان الرئيس، وكأن الشاعر يحاول تأطير المعنى داخل القصيدة مسبقاً، إلى أن هؤلاء الأعداء لا يجيدون قراءة التاريخ،فهذا العنوان يعطينا سياقاً فكرياً واضحاً للقصيدة، ويبدأ القصيدة بلفظة (تقدموا) بصيغتها الطلبية، ويكررها أكثر من أربع عشرة مرة داخل القصيدة. هذا التكرار يستمر في القصيدة، من أولها إلى آخرها، ليس تكراراً عبثياً أو تلقائياً، فقد قلب هذا التكرار المعنى المعجمي للكلمة، فلم تعد تعني التقدم للأمام، وإنما تقدم للوراء، هذا العدو الذي يقتل الطفل والشيخ، والأم، مما يعني أن هذا العدو يعيش حالة من الإفلاس التاريخي، على مستوى الزمان والمكان. والشاعر (سميح القاسم) يبدو في هذه القصيدة وفي قصائده كلها، دائم البحث عن وعي سياسي جديد، يأتلف مع الوعي الحاضر، فهو حين يستنهض الشعب المهزوم للوقوف والمقاومة، كما نرى يؤكد في الوقت نفسه، أنه يريد أن يرى إنساناً يهودياً غير معتد، ولا ظالم، أما إذا لبس ثوب الظلم، والعدوان، فهذا هو المرفوض عنده.

وفي مقابل هذه الصورة يرسم صورة الشعب الفلسطيني. يقول في القصيدة نفسها:[1]

---

[1] المرجع نفسه/ ص١٤٢

تقدموا

وراء كل حجر كف

وخلف كل عشبة حتف

وبعد كل جثة فخ جميل محكم

وإن نجت ساق

يظل ساعد ومعصم

تقدموا

كل سماء فوقكم جهنم

وكل أرض تحتكم جهنم

تقدموا

حرامكم محلل

حلالكم محرم

تقدموا

يرسم الشاعر في هذه الأبيات، صورة الصمود الفلسطيني، أمام العدو الغاصب، فالشاعر يحاول أن يحتضن الواقع الفلسطيني، ويضم إلى هذا الواقع الوعد بالنصر، من خلال هذا الصمود، والتمسك بالأرض، ويؤكد ذلك بذكره القمح، وعشب الأرض وأحجارها، ويصف اليهود بالقتلة، والحرام عندهم حلال والحلال حرام، وقد استطاع الشاعر أن يختزل صورة الأعداء، في تركيب التضاد هذا، وأن يجعل من هذا التركيب صورة مكثفة للعدو اليهودي، وطبيعة العلاقة التناقضية بين اليهود من جهة والفلسطيني صاحب الأرض من جهة أخرى. وفي الجانب الآخر عمد القاسم في شعره –معظمه– إلى بلورة الشخصية اليهودية، ولعل الجانب الفكري لهذه الشخصية أن يكون قد أخذ نصيباً من اهتمامات الشاعر، وجدير بالذكر أن تعبير الشاعر نفسه، وفكره، قد صدر عن قناعات فكرية خاصة، تحرك الشاعر ضمن إطارها، فسميح القاسم، هو واحد من شعراء المقاومة الذين بلوروا عطاءهم

الشعري في إطار من النضال القومي، وأكدوا على أهميته، بل أهميـــة التعـاضد العربي مع النضال الفلسطيني، وقد دفع الواقع الفلسطيني بمعاناة الإنسان الفلسطيني فيه، والضغوطات اليومية والصراع الحتمي لدى حياة هذا الإنسان، دفعت لتشـكيل شعر المقاومة ضمن إطار البعد القومي والعروبي، وقد ظهرت عطاءات الشـعراء، بل والنشاطات الثقافية الفلسطينية بعامة في ظل هذا الواقع الصعب، على الرغم من أن سلطات الاحتلال لم تكن تسمح إلا بإنشاء بعض المؤسسات الثقافية مثل (رابطـة شعراء العربية) و(رابطة القلم العربي)، إضافة إلى إقامة بعض المهرجانات الثقافية مثل (مهرجان كفر ياسيف) في ٤ تموز ١٩٥٧م[١] بل إن بعض تلك المؤسســات كان تابعاً لسلطة الاحتلال في حين كان بعضها الآخر يخضع لرقابة مباشرة، وعلى الرغم من مشاركة الشاعر في هذه المهرجانات، إلا أنـــه بقـي ملتزمـاً بقضيتـه الفلسطينية، لذلك فإننا نلاحظ –وبوضوح– حالة التناقض بيـــن الشـاعر والفكـر اليهودي في فلسطين، ذلك أن المؤسسة في معظمها كانت ضد هذا الفكر الســاعي إلي تدمير الأرض والإنسان، والاستيلاء ليس علي فلسطين فحسب، بل السعي إلـي إنشاء دولة إسرائيل الكبرى، وقد ضمّن سميح القاسم شعره دعوى مباشـــرة إلـي ضرورة التصدي للمحاولات اليهودية البشعة للقضاء علي الإنسان، والأرض، فقال في إحدى قصائده مؤكداً علي ضرورة التصدي بالوســائل كلـها، وعلـي أهميـة المواجهة:[٢]

أعطني إزميلك المسكوب من صلب المرارة
لم أعد أقوي بأظافري
علي هذه الوجوه المستعارة

---

[١] للمزيد من التفاصيل انظر صبري جريس/ العرب في إسرائيل/ مركز الأبحاث الفلسطيني/ ط٢ بيروت/ ١٩٧٣م/ ص٢٨٣ – وما بعدها

[٢] الأعمال الكاملة/ ص٢٧٢

هرأت عظم أصابعي النتوء الهمجية
في الوجوه الحجرية،
والأفاعي لم تزل تنسل
من أفواه الحضارة
من تجاويف الجاهلية !

إن تجربة الشاعر استمدت جزءاً من ملامحها من خلال رؤيته الفكرية، ذلك أننـــا نجد هذه الرؤية تتغير مع التطور التاريخي للقضية الفلسطينية فبعد الستينات ومـــع دخول الصراع العربي مرحلة جديدة من مراحل التناقض والتصادم، تأخذ تجربـــة الشاعر آفاقاً عربية وإنسانية، يقول أحد الباحثين بهذا الصدد، متحدثاً عن التطـــور الفكري والفني للشاعر:

" فمن يتتبع شعر (سميح القاسم) يرى حتى دقائق الشاعر النفسية تتكيف وفقاً لهمـــة القومي الذي يطغي علي مجمل شعره"[٤]

والحقيقة أن عدداً من قصائد الشاعر قد حملت همومه العربية، فهو لم يترك مناسبة إلا وعبر من خلالها عن انتمائه العربي. يقول في إحداها:[٣]

في ذلك
يذكر القارئ
أولا يذكر القارئ
لكني لكي يفهم كل الناس ما قلت
أعيد:
نحن، في الخامس،

---

[٤] د. خالد علي مصطفى/ الشعر الفلسطيني الحديث/ المكتبة الوطنية/ بغداد/ ١٩٧٨م/ ص٢٧٢
[٣] الأعمال الكاملة/ ص٦٦٩

من شهر حزيران،

ولدنا من جديد!

هكذا تبدو صورة اليهودي في شعر سميح القاسم، فهي شخصية ترتكز في تشكيلها علي ثقافة أساسها، القصص الخرافي ومبادئ الديانة اليهودية المحرفة، التي تعتمد علي عنصر التعالي علي الأمم الأخرى، مما أنعكس بدوره علي رؤيتهم للعربي الذي يعايشهم يومياً، فنظروا إليه نظرة احتقار وصغار، وثبت ذلك عند أدبائهم وسياسيهم، إضافة إلي رأى العامة من اليهود، وسميح القاسم يصور هذه الشخصية بعيداً عن أي تعصب ديني أو عقائدي وبين الشاعر سبب معاداته وكرهه لهم، وهو احتلالهم للأرض، وظلمهم لشعبة، فنظرة الفلسطيني لليهودي نظرة إنسانية، تخلو من عناصر الحقد والكراهية كلها، فهو يريد أن يرى إنساناً يهودياً بعيداً عن الشر والكراهية.

المراجـــع

١. أحمد بن محمد المقرئ الفيّومي / المصباح المنير / بـــيروت / ١٩٧٨ م .

٢. أنطوان شلحت / شخصية العربي في الأدب العبري /دار ابـــن رشد/ عمان/ ١٩٨٦م .

٣. بنيامين نتنياهو/ مكان تحت الشمس / دار الجليل / عمـــــان / ١٩٩٨م .

٤. جيمس فريزر / الفلكلور في العهد القديم / ترجمـــــة د. نبيلـــة إبراهيم / مراجعة د. حسن ظاظا / الهيئة المصرية العامة للكتـــاب / ج ١ /١٩٧٤ م .

٥. حسن خضر / هوية الآخر / دراسات في الأدب الإســـرائيلي / وزارة الثقافة الفلسطينية / ع١ / ١٩٩٥ م .

٦. د. حسن ظاظا / الشخصية الإسرائيلية/ دار القلم / بـــيروت / ط٢ / ١٤١٠ هـــ ١٩٩٠ م .

٧. د. خالد علي مصطفى / الشعر الفلسطيني الحديث / المكتبـــة الوطنية / بغداد / ١٩٧٨ م .

٨. روجيه جارودي / الأساطير المؤسسة للسياسة الإســـرائيلية / دار الشروق / ط٢ / ١٤١٩ هـــ ـــ ١٩٩٨ م .

٩. روبرت همفري / تيار الوعي في الرواية الحديثة / ترجمة د. محمود الربيعي / القاهرة / ط٢ / ١٩٧٥ م .

١٠. د. زكريا إبراهيم / قضايا فلسفية / مشكلة الحياة / مكتبة مصر / ط٢ / ١٩٧٥ م .

١١. سميح القاسم / الأعمال الكاملة / دار العودة / بيروت / ١٩٧٨م .

١٢. سميح القاسم / ديوان الموت الكبير / دار الآداب / بيروت / ١٩٧٣ م .

١٣. سميح القاسم/ ديوان لا أستأذن أحد / دار رياض الريس للكتب والنشر / لندن / ١٩٨٨م .

١٤. سميح القاسم/ ديوان وما صلبوه وما قتلوه ولكن شبه لهم / منشورات صلاح الدين /القدس /١٩٧٦م.

١٥. صبري جريس / العرب في إسرائيل / مركز الأبحاث الفلسطيني / ط٢ / بيروت / ١٩٧٣ م .

١٦. د. فايز محمد الحاج / بحوث في علم النفس العام / المكتب الإسلامي / الرياض / ط٥ / ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

١٧. كلايد كلو كهون / الإنسان في المرآة / ترجمة شاكر سليم / المكتبة الأهلية / بغداد / ١٩٦٤ م .

١٨. محمود العابدي / مخطوطات البحر الميت / عمان / ١٩٦٧م .

١٩. محمود درويش / شيء عن الوطن / دار العودة / بيروت / ط١ / ١٩٧١م .

٢٠. يوسف الخطيب / ديوان الوطن المحتل / دار فلسطين / دمشق / ط١ / ١٩٦٨ م .

المجـلات

- مجلة الطريق / بيروت / العددان ١١ / ٨ ١٩٩٦م
- مجلة الكرمل / فلسطين / ع ١٢ / ١٩٨٤م.